إسهامات قلعة بني حمَّاد
في العمارة والفن بالغرب الإسلامي

Contributions of Qal'at Bani Hammad
To the Muslim West's art and architecture

محمد لخضر عولمي*
جامعة 8 ماي 1945 – قالمة
oulmimed@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023/02/10 تاريخ القبول 2023/04/14 تاريخ النشر 2023/05/14

ملخص: تعد قلعة بني حمَّاد من أهم المواقع الاثرية الإسلامية في العالم، وذلك راجع لكون المدينة لا تزال مغمورة تحت التراب كما هي عندما هجرت في القرن الثالث عشر. وكشفت الحفريات الأثرية على أهم معالمها، وأمدتنا بالكثير من المعطيات عن العمارة والفن بالمدينة ما يؤكد أنها كانت واحدة من أهم مراكز الفن الإسلامي، وكان لها تأثير كبير على الفن والعمارة الإسلامية التي ازدهرت لاحقا بالمغرب الأقصى، الاندلس وصقليا. فالمعطيات الأثرية تؤكد ان الابتكارات في العمارة والفن بالقلعة كانت من أهم الأسس التي قام عليها ما يعرف بالفن المغربي الأندلسي الذي أصبح يميز المغرب الإسلامي والأندلس منذ القرن الرابع عشر.

الكلمات المفتاحية: قلعة بني حمّاد؛ فن؛ عمارة؛ البلاطات الخزفية؛ المقرنصات.

Abstract: Qal'at Bani Hammad is one of the most important Muslim archaeological sites in the world, and remained buried underground as it was abandoned in the thirteenth century until the beginning of the twentieth century. Excavations carried out there, revealed its most

* المؤلف المراسل

important monuments, and provided important data which confirms that Qal'at Bani Hammad was an important center of Muslim art and architecture, and had a decisive impact on the Muslim art that flourished later in the Maghreb and Andalusia, known as Moorish art that characterizes the Muslim art in the area from the fourteenth century till nowadays.

key words: Qala’t Bani Hammad; art; architecture; glazed tiles ;Muqarnas.

مقدّمة:

لم يلقى الفن الإسلامي الاهتمام والاحترام والإعجاب الذي يستحقه إلا بداية القرن العشرين، فخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان الرحالة والمستكشفون وغيرهم من الأوروبيين الذين زاروا البلدان الإسلامية، ينظرون الى الفن الإسلامي بنوع من الفضول والاستعلاء معتقدين أن الفن الإسلامي لا يرقى الى مستوى الفن الأوربي تبعا للفكر الأوربي السائد آنذاك والذي يعتقد بتفوق الحضارة الأوربية على غيرها من حضارات العالم. ومع بداية القرن العشرين بدأ الاهتمام بالفن الإسلامي من طرف مجموعة من العلماء الرواد الذين قاموا بدراسات وبحوث علمية حول العمارة والفن الإسلامي، وقاموا بحفريات في المواقع الإسلامية المهمة بالمشرق الإسلامي نذكر منهم على سبيل المثال كرسوال (K. A. C. Cresswell)، ارنست هارتزفلد (E. Herzfeld)، وارنست كونل (E. Kuhnel)، وفي الغرب الإسلامي جورج مارسي (G. Marçais) ولوسيان قولفين (L. Golvin) في الجزائر، وهنري تيراس (H. Terrasse) في المغرب الأقصى، وبازيليو بافون مالدونادو(B.P. Maldonado) في اسبانيا، ويرجع الفضل الى مثل هؤلاء الباحثين التأسيس للدراسات في الفن الإسلامي وعلم الآثار الإسلامية.

كان تعامل الدارسون للعمارة والفن الإسلامي في الجزائر وغالبتهم من الفرنسيين إن لم نقل كلهم، يختلف عن تعاملهم مع نفس الموضوع في الأقطار المجاورة للجزائر أي وتونس والمغرب الأقصى والأندلس، فغالبا ما يركزون في دراستهم على أهمية تلك الأقطار وإسهاماتها في الفن الإسلامي، بينما يتجاهلون أو يقللون من دور المغرب الأوسط

وإسهاماته في الحضارة والفن الإسلامي رغم الدلائل المادية والتاريخية التي تؤكد الدور المحوري على جميع الأصعدة الذي لعبه المغرب الأوسط في ازدهار الحضارة والفنون الإسلامية بمنطقة الغرب الإسلامي. ويمكن تفسير هذا التجاهل من طرف الباحثين الفرنسيين بشكل واعي ومقصود عند البعض أو بشكل غير واعي عند البعض وذلك راجع الى الفكر الاستعماري الذي كان سائدا لدى غالبية الفرنسيين بما في ذلك لدى الطبقة المثقفة، الفكر الذي كان يعمل على طمس التاريخ الحضاري الإسلامي للجزائر وسلخ الشعب الجزائري عن هويته الحضارية وفرض الثقافة الفرنسية عليه ومن ثمَّ تجاهل اسهامات الجزائر في الحضارة الإسلامية.

ففي هذا المقال سوف نتعرض الى جانب من جوانب اسهامات الجزائر الحاسمة في العمارة والفن الإسلامي، وبشكل خاص اسهامات العمارة والفن الحمَّادي الذي كان له الفضل في العديد من الابتكارات في العمارة والفن والتي انتقلت عبر المرابطين ثم الموحدين الى القسم الغربي من المغرب الإسلامي أي المغرب الأقصى والاندلس وكان لها دورا حاسما في بلورة وبشكل نهائي شخصية الفن في الغرب الإسلامي والذي يطلق عليه مصطلح الفن المغربي الاندلسي والذي أصبحت تعرف به المنطقة منذ القرن الرابع عشر الميلادي.

المبحث الأول

لمحة تاريخية عن قلعة بني حمَّاد

أسس حمَّاد بن بلكين بن زيري مدينة قلعة بني حمَّاد سنة 398 هـ/1007 م لتكون أولى الإنجازات المعمارية والحضارية لبني حمَّاد وعن تأسيسها يقول ابن خلدون" واختط مدينة القلعة بجبل كتامة سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة...وتم بناءها وتمصيرها على رأس المائة الرابعة وشيد من بنيانها واسوارها واستكثر فيها من المساجد، والفنادق، فاستبحرت في العمارة واتسعت بالتمدن"[1]. عرفت المدينة ازدهارا وتطورا كبيرا خاصة في عهد الناصر وخليفته المنصور الذي كان مولعا في البناء كما يشير الى ذلك ابن خلدون بقوله "انه كان

مولعا بالبناء وهو الذي حضر ملك بني حماد وتفانى في تخطيط المباني وتشييد المصانع واتخاذ القصور واجراء المياه في الرياض والبساتين فبنى في القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام وفي بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميمون"[2] وقد ساهم في ازدهار المدينة اجتياح قبائل بنو هلال لأفريقية واحتلالهم مدينة القيروان وتخريبها مما أدى الى نزوح سكانها من وأهل العلم والصناع والحرفيين التجار[3] الى القلعة لتصبح أهم مركز للتجارة والثقافة والعلم والفنون في المغرب الأوسط.

كان لهزيمة الأمير الحمَّادي الناصر أمام قبائل بنو هلال في معركة سبيبة سنة 457 هـ / 1065 م انعكاسات خطيرة على المغرب الأوسط، حيث سمح ذلك للقبائل العربية بالتوغل في أراضي مملكة بني حمَّاد وأضحت مدينة القلعة تحت تهديداتهم المستمرة الأمر الذي جعل الناصر يفكر في بناء عاصمة جديدة تكون بعيدة عن الخطر الذي تشكله القبائل العربية، فشرع في تشييد مدينة بجاية على ساحل البحر المتوسط بداية من سنة 460 هـ/ 1967 م، وأنتقل اليها خليفته المنصور ليستقر بها نهائيا سنة 483 هـ/ 1090م وبذلك فقدت القلعة مكانتها كعاصمة وأهم مدن المملكة وبدأ نجمها في الأفول. تعرضت المدينة لهجمات القبائل العربية فخربوا ضواحيها واجبروا حاميتها على التحصن بها[4] الأمر الذي أضطر الأمير الحمَّادي يحي ابن عبد العزيز سنة 534 هـ/ 1148 م من الانتقال إليها لينقل ما تبقى بها من أشياء ثمينة الى بجاية، وبذلك تركت المدينة لمصيرها، وفي سنة 546 هـ / 1152 م استولت جيوش الموحدين على المدينة بعد استيلائهم على بجاية والقضاء على ملك بني حمَّاد، لتندثر المدينة بعد ذلك نهائيا الى غاية اكتشافها نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

كشفت الحفريات الآثرية العديدة التي تمت بالقلعة، خاصة تلك التي قام بها الجينرال دوبايلي سنة 1908، والتي قام بها لوسيان قولفين ما بين 1951 و1956 ثم سنة 1960، والحفريات التي قام بها رشيد بورويبة بداية من سنة 1967، على أهم معالم

المدينة؛ الجامع، قصر البحر، قصر المنار وقصر السلام، وما تحويه من كنوز معمارية وفنية تدل على المستوى الراقي الذي بلغه الفن الإسلامي في عهد بني حمَّاد وإسهاماتهم في الحضارة والفن الإسلامي.

المبحث الثاني

العمارة الحمَّادية

المطلب الأول: المساجد

يعد جامع قلعة بني حمَّاد من اهم المعالم التي تم الكشف عنها، ويؤرخ هذا الجامع بتاريخ تشييد المدينة باعتبار ان المسجد الجامع يكون من أول المباني التي يجب بناءها عند تشييد مدينة إسلامية جديدة كما هو حال مدينة قلعة بني حمَّاد. وإن كان جامع القلعة في تخطيطه لا يختلف عن المساجد المشيدة في المنطقة منذ الفتح الإسلامي، باعتماده على الاعمدة في قاعة الصلاة واروقة الصحن وجعل المئذنة في محور المحراب وتتوسط الجدار الشمالي للجامع، إلا ان ما يميزه هو مخططه العام والذي يقترب من المخطط المربع، حيث يبلغ عرضه 56 م وعمقه 64 م^{5}، وبذلك فهو يبتعد عن المخطط المستطيل، عمقه أكبر من عرضه الذي كان شائعا في المنطقة مثل جامع عقبة بن نافع بالقيروان والجامع الأموي بقرطبة. نلاحظ أن الاتجاه نحو المخطط القريب من المربع في المساجد التي شيدت في المغرب الأوسط أي الجامع الكبير بمدينة الجزائر، الجامع كبير بندرومة والجامع الكبير بتلمسان[6]، التي شيدها المرابطون نهاية القرن القرن الحادي عشر والنصف الأول من القرن الثاني عشر[7]. وهو التخطيط الذي أصبح سائدا في تشييد المساجد بالمغرب الإسلامي، اعتمده الموحدون ثم بنو زيان وبنو مرين لاحقا ولم يحيدوا عنه إلا في حالات نادرة مثل جامع حسان بالرباط او جامع المنصورة بتلمسان.

ولتفسير هذا التأثير للعمارة الحَّمادية على عمارة المرابطين، يجب العودة الى الظروف التاريخية التي برز فيها المرابطون كقوة سياسية في الغرب الإسلامي، من المعروف أن

المرابطين كانوا قبائل بدو تعيش في الصحراء وفي الخيام ولم تكن لهم تقاليد في العمارة والحياة المدنية، وبنزوحهم نحو الشمال واستيلاءهم على المغرب الأقصى ثم المغرب الأوسط في وقت كانت فيه مدن مملكة بني حمَّاد حواضر المغرب الأوسط ومراكز للفن والعمارة الإسلامية بينما كان المغرب الأقصى يعيش في فترة من الفوضى السياسية ولم تصلنا أي معالم تذكر شيدت فيه خلال تلك الفترة، لذلك فالمرجح جدا أن المرابطين اخذوا بما كان سائدا في حواضر بني حمَّاد من عمارة وفنون لتشييد عمائرهم ومساجدهم، لذلك ليس من الغريب ان المساجد المرابطية تشبه في عمارتها عمارة جامع قلعة بني حمَّاد. ومما ساعد في ذلك بدون شك علاقات حسن الجوار والمودة التي كانت تجمع بني حمَّاد بالمرابطين نتيجة علاقات الدم التي تربط بينهم بكونهم ينتسبون الى نفس القبيلة وهي قبيلة صنهاجة العظيمة.

المطلب الثاني: المآذن

أبرز ما تبقى من الجامع وفي حالة جيدة من الحفظ هو المئذنة، وتعد بحق من أهم المعالم بالغرب الإسلامي والتي كان لها دورا كبيرا في تطور المآذن في الغرب الإسلامي في شكلها وفي زخرفتها والذي تحدد في عهد الموحدين، وسار على منوالهم خلفاءهم من بني مرين في المغرب الأقصى وبني زيان في المغرب الأوسط، تلك المآذن التي أصبحت من العلامات المميزة لمدن المنطقة. فبعد القضاء على ملك الحمَّاديين ودخلوهم مدينة قلعة بني حمَّاد، تأثر الموحدين كثيرا بعمارة وفنون القلعة ونقلوها الى المغرب الأقصى والأندلس، ويظهر ذلك التأثير بشكل واضح في بناء وزخرفة مآذن مساجدهم في المغرب الأقصى والأندلس.

تتميز مئذنة جامع قلعة بني حمَّاد برشاقتها وخفتها. لقد فقدت المئذنة الجوسق ولم يبق منها سوى البدن، والذي يبلغ طول ضلعه 6.50 م وارتفاعه70.24 م [8] أي ان ارتفاعه يبلغ تقريبا أربعة اضعاف طول ضلعه، وإذا ما أضفنا الجوسق فإنه من المحتمل جدا ان

ارتفاعها الكلي يساوي خمسة أضعاف طول ضلعها مما يضفي عليها رشاقة وخفة لم تكن معهودة في مآذن المنطقة، وهي النسبة التي اصحبت النسبة المثالية التي استعملت في أشهر المآذن الموحدية، أي مئذنة جامع الكُتبية بمراكش ومئذنة جامع اشبيليا المشهورة باسم "لاخيرالدا"، وأصبحت هذه النسبة لاحقا تقليدا في المنطقة واستعملت في تشييد غالبية المآذن المرينية والزيانية والمآذن الأندلسية ونادرا ما تخرج عن هذه النسبة عندما يحدث ذلك تبدو ثقيلة وغير متوازنة كما هو الحال في مئذنة جامع القصبة بمراكش او مئذنة جامع الزهر بفاس البالي أو مئذنة جامع سيدي إبراهيم بتلمسان.

كما كان لمئذنة القلعة تأثيرا حاسما في زخرفة المآذن الموحدية ومن بعدها المآذن المرينية والزيانية، وأبرز دليل على ذلك ولا يدع مجال للشك في أن مئذنة القلعة كانت النموذج الأولي الذي شيدت وزُخرفت على غراره المآذن الموحدية هو مئذنة جامع إشبيليا (صورة رقم 01) حيث نلاحظ ان تصميم زخرفتها مستوحى من تصميم زخارف مئذنة جامع القلعة (صورة رقم 02) ويعتمد على ثلاث اشرطة أو مساحات عمودية تمتد بطول واجهات المئذنة ، وكما هو الحال في مئذنة جامع القلعة ايضا المساحة الوسطى مزينة بعقود زخرفية متنوعة كبيرة فوق بعضها البعض لتشكل ما يشبه طوابق، بينما المساحات الجانبية فهي مزينة بشبكة من المعينات الهندسية بدل العقود الصماء والمشكوات المستعملة في مئذنة القلعة. كما أن استعمال العقود الزخرفية الكبيرة أصبح أيضا من اهم العناصر الزخرفية في مئذنة جامع الكُتبية بمراكش ومن بعهدها في مئذنة جامع حسان بالرباط وفي غالبية المآذن المرينية والزيانية.

ومن التأثيرات الحاسمة أيضا في زخرفة المآذن الموحدية ومن بعدها المآذن المرينية والزيانية المقتبسة من مئذنة جامع قلعة بني حمَّاد، هو استعمال البلاطات الخزفية في تزيين المآذن. فعند زيارته لموقع قلعة بني حمَّاد بداية القرن العشرين أشار الجنرال دوبايلي الى بقايا تلك البلاطات الخزفية[9] اختفى اغلبها ولم يبقى منها اليوم إلا القليل.

كانت المشكوات المسطحة السفلية مكسوة بقطع من الأجر الأخضر المزجج[10] موضوعة بشكل متناوب بحيث تشكل فيما بينها مساحات على هيئة صلبان متساوية الأضلاع يظهر من خلالها سطح المئذنة بلونه الأبيض ولا يزال بعضها في مكانه الى اليوم، اما النموذج الثاني وهو مشابه للسابق، كان يكسو المشكوات العلوية، وهو يتشكل من قطع خزفية خضراء مزججة على هيئة صلبان متساوية الأضلاع، رؤوسها دائرية الشكل يتوسطها فراغ يأخذ نفس الشكل الصليبي يظهر من خلاله اللون الأبيض للجص الذي يكسو سطح المئذنة وكان هناك نموذج ثالث من البلاطات الخزفية تزين العقد الأصم الذي يتوج المساحة المركزية لواجهة المئذنة، تصميمها لا يختلف كثيرا على التصميم السابق، فهو مكون من صلبان موضوعة على رؤوسها، أضلاعها بها منحنيات نصف دائرية ليشكل شبكة من القطع الخزفية تتناوب مع شبكة مماثلة من الجص وقد اضفى هذا التناوب بين اللون الأبيض لسطح المئذنة واللون الأخضر للقطع الخزفية المتلألئ تحت اشعة الشمس المنعكسة عليه جمالا رائعا لهذه المئذنة.

يعد استعمال البلاطات الخزفية في هذه المئذنة سابقة في تاريخ العمارة بالغرب الإسلامي، فلأول مرة تستعمل في تزيين المآذن، وهو الأمر الذي انتقل لاحقا الى المآذن الموحدية، حيث نشاهد ذلك لأول في المآذن الموحدية بالمغرب الأقصى بمئذنة جامع الكُتبية على هيئة أفريز يزين نهاية بدن المئذنة ونهاية الجوسق، في الأندلس بمئذنة جامع اشبيليا على هي هيئة بلاطات خزفية سوداء دائرية الشكل تزين طبلات العود الزخرفية الكبرى وأخرى تتوسط إفريز العقود التي تتوج بدن المئذنة، وليتوسع استعمالها في مئذنة جامع القصبة حيث تكسوا سطح المعينات الهندسية والافريز الذي يتوج نهاية البدن[11]، لتصبح بعد ذلك من التقاليد المميزة لمآذن المغرب الإسلامي والأندلس.

يبدو جليا مما سبق ان مئذنة قلعة بني حمَّاد كانت نموذجا للمآذن الموحدية في شكلها العام وفي نسبها وفي زخارفها المعمارية واستعمال البلاطات الخزفية في زخرفتها وهي

المبادئ التي أصبحت تقليدا في مآذن الغرب الإسلامي، في الأندلس وفي المغرب الأقصى والمغرب الأوسط وبدرجة اقل في إفريقية فلو لا مئذنة جامع القلعة لما كانت هذه المآذن الرشيقة المميزة لفاس وتلمسان وغيرها من مدن المنطقة.

المطلب الثالث: القصور

كشفت حفريات القلعة على اربعة قصور حمَّادية وهي قصر البحر، قصر المنار، قصر السلام، وقصر الكوكب، ويعد ذلك امرا فريدا في المغرب الإسلامي الذي اندثرت فيه تماما قصور الأغالبة في مدينة رقَّادة والعباسية او القصور الفاطمية والزيرية في المهدية، وما تم الكشف عنه خلال الحفريات التي تمت بتلك المواقع قليل جدا ولا يعطينا فكرة واضحة عن تلك القصور[12]، بينما قصور المرابطين والموحدين في تلمسان ومراكش اندثرت تماما، ومن ثمَّ تبرز أهمية قصور القلعة لدراسة عمارة القصور الإسلامية في المنطقة خلال تلك الحقبة من تاريخ المنطقة.

عموما عند الحديث عن الفن الإسلامي في الغرب الإسلامي، غالبا ما يكون الحديث عن التأثيرات القادمة من الشرق الإسلامي، وهو أمر لا يمكن نفيه، فالفن الإسلامي كانت بدايته في المشرق الإسلامي اين تشكلت اهم مبادئه وقواعده الأساسية التي سار عليها لاحقا في جميع الأقاليم الإسلامية. لكن بعد القرون الثلاث الأولى نلاحظ ان كل إقليم من الأقاليم طور أسلوبه الخاص في العمارة والفنون المرتبطة بها وفي الفنون التطبيقية، وفي هذا الإطار يجب قراءة القصور الحمَّادية.

أهم ما يمز قصور القلعة هو انسجامها مع محيطها، حيث بنيت مرافقها في مستويات مختلفة حسب انحدارات الأرضية التي شيدت عليها ويظهر ذلك بشكل واضح في قصر البحر (شكل رقم 01)، وبذلك فهذه القصور تختلف عن القصور الأموية أو القصور العباسية في سامراء المتميزة بمساحاتها الشاسعة وبخطوطها الهندسية المستقيمة والتناظر الصارم، والقاعات الكبرى المغطاة بأقبية ومفتوحة على ساحات القصر ألا وهي الإيوان،

وهو عنصر معماري مستمد من التقاليد الفارسية القديمة. اذن القصور الحمَّادية تختلف عن قصور الشرق، فهي قصور ذات احجام أو مساحات يمكن القول عنها إنسانية، تتكون من مجموعة من المباني مبنية جنب الى جانب ولكن بدون أن تتبع مخطط منتظم يعتمد على الخطوط المستقيمة والتناظر، غير انها تشكل وحدة متكاملة، منسجمة ومتناسقة مع بعضها البعض وتربط بينها ممرات وساحات وحدائق، وهو التخطيط الذي نشاهد لاحقا في تخطيط مجمع قصر الحمراء بغرناطة (شكل رقم 02)، هذا الأخير والذي يتكون بدوره من مجموعة من المباني المستقلة لكل منها تخطيطه الخاص ولا تتبع مخططا هندسيا منتظما، والرابط بينها هو الأروقة والحدائق والساحات الداخلية التي تسمح بالانتقال فيما بينها وفي هذا الجانب فهو يشبه الى حد بعيد قصر البحر وقصر المنار.

الشيء المميز أيضا في قصور قلعة بني حمَّاد هو الحدائق والمياه، فمدينة القلعة بنيت في منطقة جبلية وصخرية قليلة الأمطار وشحيحة المياه ومع ذلك نشاهد قصور القلعة مجهزة بحمامات[13] واحواض ونافرات المياه. ويظهر ذلك بشكل بارز في قصر البحر الذي يستمد اسمه من بركة الماء الكبيرة الواقعة بالجهة الجنوبية للقصر (صورة رقم 03) حيث يبلغ طولها 67 م، عرضها 47 م، وعمقها 1.60 م[14] وأرضيتها مبلطة بالإسمنت وهذا ما يؤكد ما جاء عن هذا القصر وعن هذه البركة في كتاب الاستبصار حيث يقول مؤلفه "بالقلعة مباني عظيمة وقصور منيعة متقنة البناء عالية السناء منها قصر يسمى بدار البحر وقد وضع في وسطه صهريج عظيم تلعب فيه الزوارق يدخله ماء كثير من ماء مجلوب من بعيد"[15]، وتعد هذه البركة اقدم مثال بهذا الحجم في الغرب الإسلامي، وتذكرنا ببركة أشهر القصور الإسلامية وهو قصر الحمراء وبركة ساحة قومارش والذي يعود تشيده الى القرن الرابع عشر.

يعد قصر مدينة الزهراء، أقدم قصور الغرب الإسلامي التي وصلتنا. شيد هذا الأخير من طرف الخليفة الأموي عبد الرحمان الناصر سنوات 936 و940 لتكون مقر للحكم لمدة 80 عام حيث هجر القصر ابان ثورة البربر. ويعتمد تصميم هذا القصر على الخطوط المستقيمة والتناظر كما هو كان شائعا في القصور الإسلامية بالمشرق، وبالجهة الجنوبية من المجمع تقع حدائق القصر المصممة على نمط الحدائق الفارسية[16]، ومن ضمن مكوناتها بركة ماء تقع بالجهة الشمالية للحديقة العلوية التي تطل عليها قاعة العرش المسماة بالصالون الأحمر، وهي مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها 19 م[17] غير ان هذه البركة هي جزء من الحديقة بينما البركة في قصر البحر هي القطعة الأساسية في القصر. كان يجب انتظار القرن الرابع عشر لنرى تصميما مشابها لها في قصر الحمراء بغرناطة، وهي بركة الماء بساحة الاس (patio de los arrayanes) او بركة قصر قومارش (صورة رقم 04) والتي يبلغ طولها 30 م عرضها 8 م، وبذلك فهي تشبه في تخطيطها، في نسبها وفي وضعيتها بركة قصر البحر، وتشكل بدورها القطعة الأساسية من هذا الجناح من قصر الحمراء، وهذا ما يدل على مدى تأثير فنون قلعة بني حمَّاد على فنون الأقاليم الأخرى من الغرب الإسلامي، كما يدل الحركة النشيطة بين هذه الأقطار والمبادلات بينها في جميع المجالات بما في ذلك في مجال العمارة والفن. كما يجب ألا ننسى ان تأسيس مدينة غرناطة كان على يد زاوي بن زيري سنة 403 هـ/ 1013 م[18]، مما يدل على الصلة الوثيقة بين غرناطة والمغرب الأوسط.

امتد تأثير العمارة الحمَّادية الى جزيرة صقليا في عهد النورمنديين، ويظهر ذلك بشكل واضح في قصر (pallazo della cuba) وهو اسم مستوحى فالواقع من كلمة "قبة" العربية. شيد هذا القصر الصغير للاستجمام بالحدائق الملكية بأحواز مدينة بلرمو سنة 1180 م من طرف الملك وليام الثاني الملقب بالخيير[19]. يظهر تأثير عمارة القلعة واضحا في تصميم واجهة القصر (صورة رقم 05)، والتي تشبه الى حد بعيد تصميم واجهة مئذنة

جامع القلعة باعتمادها على المساحات العمودية بطول واجهات القصر الأربع، وتزيينها بالعقود الصماء والمشكوات المسطحة والنصف دائرية كما هو الحال في مئذنة جامع القلعة وواجهة قصر المنار، كما ان هذا القصر يقع على حافة بركة مياه واسعة تذكرنا بدورها ببركة قصر البحر بمدينة قلعة بني حمَّاد، فهذا القصر النورمندي في العديد من جوانبه يذكرنا بعمارة وفنون قلعة بني حمَّاد.

نفس التأثير نشاهده في قصر ثان شيد في أحواز مدينة بلرمو وهو قصر (Castello della Zisa) واسمه أيضا تحوير للكلمة العربية "العزيزة". بدأت الأشغال في هذا القصر سنة 1165 م في عهد وليام الأول وانتهت سنة 1189 م[20] وتظهر فيه جليا بصمة العمارة الحمَّادية، فتصاميم واجهته الأمامية، وخاصة تصاميم الواجهتين الجانبيتين (صورة رقم 06) تشبه الى حد بعيد تصاميم العمارة الحمّادية، كما ان تخطيطه الداخلي وتخطيطه غرفه مماثل لما هو مجود في قصور القلعة خاصة في تصميم الجناح الشرقي المطل على الساحة الغربية لقصر البحر.

المبحث الثالث

الفنون الزخرفية

المطلب الأول: فن البلاطات الخزفية

كانت مدينة القيروان وإفريقية اول منطقة في الغرب الإسلامي تعرف فن البلاطات الخزفية المعمارية، هذا الفن الذي نشأ وتطور في العراق، ومنه جلبت البلاطات الخزفية التي تزين محراب جامع القيروان منتصف القرن التاسع الميلادي والتي تعد أول استعمال لها في المنطقة، ومنذ ذلك التاريخ ترسخ هذا الفن بإفريقية وإن كانت اشكالها تقوم أساسا على بلاطات خزفية مربعة الشكل مزينة بزخارف بالبريق المعدني.

كشفت الحفريات التي قام بها الجينرال دوبايلي (Géneral Léon de Beylié) سنة 1908 بقصر البحر وقص المنار، ثم تلك التي قام بها لوسيان قولفين (L. Golvin) ما بين سنوات 1951 و1956 في قصر السلام، والحفريات التي قام بها رشيد بورويبة بداية من سنة 1967 في قصر المنار، على الكثير من بقايا البلاطات الخزفية اتي كانت تزين تلك القصور، اين استعملت بشكل واسع لم يسبق له في عمارة المغرب الإسلامي، حيث استعملت لتبليط الأرضيات، وكسوة جدران المباني، وتزيين المآذن وحتى لتشكيل مشربيات للنوافذ وكسوة ظهر درجات السلالم.

استعملت البلاطة الخزفية أساسا في قصور القلعة لتبليط الأرضيات وكسوة الجدران، ذات تصاميم متنوعة اكثرها شيوعا تلك التي يعتمد تصميمها على نجوم ثمانية الرؤوس المسماة خاتم سليمان، غالبا ما تكون خضراء اللون وتحصر فيما بينها صلبان متساوية الأضلاع نهايتها مثلثة والتي يطلق عليها تسمية صليب سانت اندري بيضاء اللون، هذه الأخيرة بعضها يكون مزين بزخارف متنوعة كتابية، نباتية وهندسية أنجزت بالبريق المعدني الذهبي على الأرضية البيضاء[21]، وتتمثل الزخارف الكتابية في عبارات بالخط الكوفي من الصعب قراءتها، بعضها يمكن أن يكون كلمة "يمن" و"اليمن"، أما الزخارف النباتية فتتمثل في المرواح البسيطة والمزدوجة بينما الزخارف الهندسية فهي متنوعة منها الضفائر، والدوائر والمعينات عثر على نماذج منها في قصر المنار وقصر البحر[22]. كما كشف الأستاذ رشيد بورويبة على بالقاعة الشرفية لقصر المنار غير انها لا تحمل زخارف بالبريق المعدني[23].

كما اكتشفت بلاطات خزفية في قصر البحر تعد الأجمل في تصاميمها وفي تعدد الوانها تذكرنا بالزليج. تطل على الجهة الغربية لبركة الماء ساحة كبيرة وبإحدى غرف الرواق الشرقي المطل على هذه الساحة، تم الكشف عن تلك البلاطات، تصميمها معقد وفريد من نوعه، يعتمد على شبكة من نجوم رباعية الرؤوس بيضاء تتناوب مع قطع مربعة

صغيرة ذات لون بنفسجي داكن وتربط بينها مضلعات سداسية الأضلاع خضراء اللون، أضلاعها الكبيرة مقعرة بما يتناسب مع رؤوس النجمة المحدبة (صورة رقم 07). كما اكتشفت بلاطات خزفية اخرى تعد امتدادا للسابقة ولكنها أكثر تعقيدا يذكرنا تصميمها ببعض تصاميم الزليج التي ازدهر خلال القرن الرابع عشر الميلادي. يقوم تصميمها على صفين من نجوم سداسية الرؤوس خضراء اللون ملتصقين ببعضهما ولكن ليست في نفس المستوى بحيث تترك مساحات تربط بينها على هيئة ثلاث معينات ذات لون بنفسجي داكن من جهة، وتتناوب مع صف من مضلعات سداسية الأضلاع بيضاء من جهة ثانية (صورة رقم 08).

إن التصاميم الأخيرة تدل على التطور الكبير الذي عرفته البلاطات الخزفية، بتقنية تشكليها وتصاميمها المعقدة وتعدد ألوانها مما يوحي بالاتجاه الذي سيأخذه لاحقا هذا الفن خلال القرن الرابع عشر وهو فن الزليج. ويرجع الفضل الى الموحدين في نقل هذا الفن من المغرب الأوسط الى المغرب الأقصى والأندلس، حيث نشاهد أول استعمال للبلاطات الخزفية المعمارية في مئذنة جامع الكُتبية (شكل رقم 03)كما سبقت الإشارة الى ذلك أعلاه، وتتمثل في إفريز من البلاطات الخزفية ذات تصميم مماثل للبلاطات الخزفية التي تبلط أروقة الساحة التي تطل عليها القاعة الشرفية لقصر المنار التي كشف عنها الأستاذ رشيد بورويبة[24]، ذات تصميم يقوم على شبكة من المضلعات سداسية الأضلاع تلتقي كل أربعة منها لتشكل فيما بينها مساحة مربعة تضم بلاطة خزفية بيضاء اللون وهو تصميم فريد من نوعه في القلعة، ويصبح لاحقا من التصاميم الشائعة في المغرب الإسلامي والأندلس كما سنشاهد ذلك لاحقا.

كما استعملت البلاطات الخزفية لتشكيل مشربيات النوافذ والمشربيات لتقسيم المساحات بداخل الغرف والقاعات ولكسوة ظهر درجات السلالم واطر للوحات المرمر

التي تكسو جدران بعض القاعات ذات نفس التصاميم التي أصبحت في الزليج خلال القرن الرابع عشر (شكل رقم 04).

انتقل الفن البلاطات الخزفية المعمارية من إفريقية الى المغرب الأوسط في عهد بني حمَّاد حيث اتسع استعمالها وأصبحت من اهم الفنون والمظاهر الزخرفية المعمارية، فاستعملت لتبليط الأرضيات، وكسوة جدران المباني، وتزيين المآذن وتشكيل مشربيات للنوافذ، كما تعددت أشكالها وتصاميمها ولم تعد تقتصر على البلاطات المربعة الشكل، وإنما أصبحت ذات تصاميم هندسية معقدة، حيث يتم تقطيع البلاطات الخزفية الى مضلعات متنوعة الأشكال والأحجام يتم تجميعها لتشكل لوحات ذات تصاميم هندسية معقدة، كما تميزت أيضا بتعدد الوانها الأمر الذي يساهم في جماليتها، وهذه المبادئ من تصاميم هندسية وتعدد في الألوان وفي الاستعمال، توحي بفن الزليج الذي ازدهر لاحقا في القسم الغربي من المغرب الإسلامي والأندلس.

بعد سيطرتهم على المغرب الأوسط وإفريقية، أدخل الموحدون هذا الفن الى المغرب الأقصى والأندلس، وهناك شهد تطورا ملحوظا، خاصة في ابتكار تصاميم زخرفية جديدة لم تكن معروفة وهي التصاميم الكتابية والنباتية. وبعد انهيار إمبراطورية الموحدين، تقاسم الحفصيون في إفريقية، الزيانيون في المغرب الأوسط، المرينيون في المغرب الأقصى، وبنو الأحمر في الأندلس، الإرث الحضاري للموحدين ومن ضمنه فن البلاطات الخزفية المعمارية التي شهدت تطورا مذهلا في عهد هذه الدول ليبلغ مرحلة النضج ويتحدد شكله النهائي المميز، والذي أصبح يعرف به منذ القرن الرابع عشر الميلادي تحت تسمية الزليج والذي يعد واحد من أهم العلامات المميزة للفن المغربي الأندلسي، وتنافست الورشات في فاس، تلمسان وغرناطة لإنتاج أجمل وأفخر أنواع الزليج لتزيين عمائرهم الدينية والمدنية والتي يمكن رؤية نماذج منها في المدارس المرينية بمدينة فاس، وقصر الحمراء بغرناطة، وبقايا المدرسة التَّاشفينية بتلمسان.

المطلب الثاني: فن المقرنصات

كشفت الحفريات التي قام بها الأستاذ لوسيان قولفين بقصر السلام وبقصر المنار[25]على قطع من الجص عبارة عن مقرنصات مزينة بزخارف نباتية ملونة، يعتقد انها كانت تشكل قبة مقرنصة او على الأقل انها كانت تشكل الحنايا الركنية وقاعدة سقف ذلك الرواق، وتعد اقدم نموذج عن المقرنصات في الغرب الإسلامي والى حد اليوم لا نعرف نماذج اقدم منها في المنطقة، ويبدو جليا ان القلعة كان لها السبق في استعمال هذا النمط من العناصر المعمارية والزخرفية في الغرب الإسلامي ومنها انتقل الى المغرب الأوسط حيث نشاهد استعمالها في العمارة المرابطية منها القُبيبة المركزية في القبة المضلعة امام المحراب لجامع تلمسان التي شيدت سنة 530 هـ/ 1136 م كما تشير الى ذلك الكتابة التذكارية في قاعدة القبة[26]، ومجموعة القباب المقرنصة بالبلاطة الوسطى بجامع القرويين التي ترجع الى عهد المرابطين الذين قاموا بتوسيع الجامع واعطاءه شكله الحالي وذلك سنة 531 هـ/ 1137 م كما تشير الى ذلك الكتابات التذكارية حول قاعدة قبة المحراب وقاعدة القبة المستطيلة بالبلاطة الوسطى[27].

وما يؤكد الدور المحوري الذي لعبته قلعة بني حمَّاد في انتشار هذا النوع من الزخرفة المعمارية هو المقرنصات التي تشكل الحنايا الركنية لقبة بوابة قصر القبة (Palazzo della Cuba) المشار إليه أعلاه والذي يذكرنا بعمارته وزخارفه بعمارة وفنون قلعة بني حمَّاد، ومن أقدم النماذج عن استعمال المقرنصات بالحوض الغربي للبحر المتوسط في بكنيسة لاكابيلا بلاتينا (la Cappella Pallatina) بالقصر الملكي بمدينة بلرمو والتي شيدت من طرف الملك النورمندي روجر الثاني بداية من سنة 1132 م، اين استعملت المقرنصات لتشكيل سقف الكنيسة[28]، مقرنصات في اشكالها وزخارفها الملونة تشبه الى حد بعيد تلك التي عثر عليها في القلعة[29]. هذه الأمثلة الثلاثة بمدينة بلرمو المشيدة من طرف الملوك النورمنديين بصقليا تدل الإشعاع الحضاري لمملكة بني حمَّاد في

الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط والتأثير الكبير لفنون القلعة التي امتدت الى المغرب الأقصى والأندلس وحتى جزيرة صقليا.

خاتمة

نشأت دولة بني حمَّاد في فترة ظروف تاريخية شهدت فراغ سياسي بعد انتقال الخلافة الفاطمية الى مصر واستغل بولوغين ابن زيري ذلك ليؤسس مملكة بالمغرب الأوسط بسطت نفوذها على المغرب الأوسط في وقت كان المغرب الأقصى والأندلس يعيشان فترة فوضى سياسية الى غاية النصف من القرن الحادي عشر بقيام دولة المرابطين، كما شهدت غزو قبائل بني هلال لأفريقية في تفكيك المملكة الزيرية بإفريقية، هذا ما جعل الدولة الحمادية وعاصمتها قلعة بني حمَّاد ثم بجاية حواضر المغرب الإسلامي وازدهار العمارة والفن الإسلامي الذي شهدا تطورا مميزا في جميع مظاهره. ومع اندثار ملك بني حمَّاد وسقوط مدينة بجاية والقلعة في يد الموحدين فمن المرجح أن ذلك أدى الى موجهة هجرة لنخبة المعماريين والحرفيين الحمَّاديين نحو المغرب الأقصى والأندلس وصقليا بحثا عن العمل اخذين معهم تقاليدهم المعمارية وفنونهم مما يفسر هذا التشابه الكبيرة في التصاميم المعمارية في تلك الأقطار بالعمارة الحمَّادية بالقلعة وانتشار فن البلاطات الخزفية والمقرنصات في تلك الأقاليم لتتطور في فضل حكم الموحدين وخلفائهم من بني زيان، بني مرين وبني الأحمر لتصبح من أهم مميزات فن الغرب الإسلامي الذي يعرف اليوم باسم الفن المغربي الأندلسي.

الملاحق

ملحق الصور

صورة رقم 01: مئذنة جامع قلعة بني حمَّاد

صورة رقم 02: مئذنة جامع اشبيليا

صورة رقم 03: بركة المياه بقصر البحر

صورة رقم 04: بركة المياه بقصر الحمراء بغرناطة

صورة رقم 05: قصر القبة ببلرمو

صورة رقم 06: قصر العزيزة ببلرمو

صورة رقم 07: بلاطات خزفية من قصر البحر

صورة رقم 08: بلاطات خزفية من قصر البحر

صورة رقم: 09: مقرنصات من القلعة

صورة رقم 10:مقرنصات من كنيسة لاكابيلا بلاتينا

ملحق الأشكال

شكل رقم 01: مخطط قصر البحر بقلعة بني حمَّاد

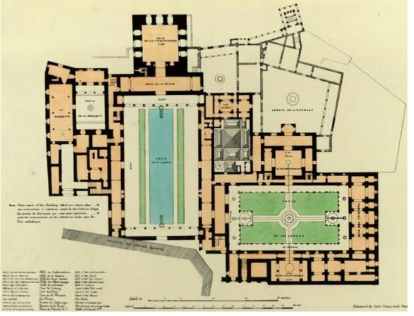

شكل رقم 02: قصر الحمراء بغرناطة

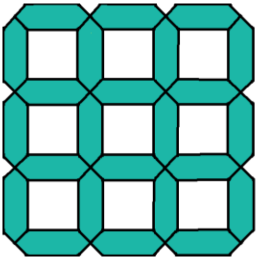

شكل رقم 03: بلاطات خزفية من قصر المنار

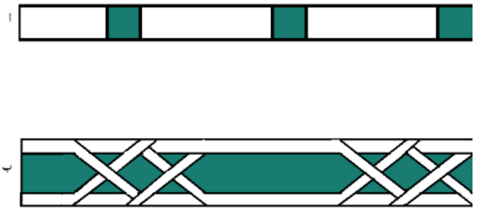

شكل رقم 04: بلاطات خزفية من قصر المنار

الهوامش

[1] عبد الرحمان ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج.6، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1961، ص. 350

[2] نفسه، ص. 358

[3] أبو عبد الله البكري،كتاب المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك، نشره البارون دوسلان، الجزائر، 1911، ص. 105

[4] ابن خلدون، المصدر السابق، ص. 363

[5] Golvin, L. le Maghrib central à l'époque des Zirides, recherches d'archéologie et d'histoire, Arts et Métiers Graphiques, Paris, 1965, pp. 183- 185, fig. 14

[6] Marçais, G. l'Architecture musulmane d'Occident, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Sicile, Arts et Métiers Graphiques, Paris, 1954, pp. 191-192

[7] شُيد الجامع الكبير بمدينة الجزائر سنة 490 هـ/1096م، والجامع الكبير بتلمسان سنة 530 هـ/ 1136 م أما الجامع الكبير بندرومة فلا نعرف تاريخ تشييده بدقة لكن من المؤكد أنه شيد قبل سنة 539 هـ/ 1145 م

[8] Bourouiba, R. l'Art religieux musulman en Algérie, Sned, Alger, 1981, p. 44
[9] de Beylié, L. La Kalaa des Beni Hammad une capitale berbère au XI siècle, Ernest Leroux, Paris, 1909, p. 83
[10] Marçais, G. Poteries et faiences de la Qal'a des Beni Hammad (XI siècle), contribution à l'étude de la céramique musulmane, D. Abraham éditeur, Constantine, 1913, p. 10
[11] Basset, H & Terrasse, H. Sanctuaires et forteresses almohades, Maison neuve & Larose, Paris, 1932, p. 309
[12] Zbiss, S. M. « Mahdiya et Sabra-Mansuriya : nouveaux documents d'art fatimide d'Occident », Journal Asiatique, 1956, pp. 83-87
[13] de Beylie, L. La Kalaa des Beni Hammad, op. cit., p. 68
[14] Golvin, L. Le Maghreb central à l'époque des Zirides, op. cit., p. 188
[15] مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص. 168
[16] Fairchild Ruggles, D. Islamic Gardens and Landscapes, University of Pennsylvania Press, Philadelphia, 2008, pp. 152-153
[17] Felix, A. Islamic palace architecture in the western mediterranean : a History, Oxford university press, Oxford, 2017, p. 87
[18] لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في اخبار غرناطة، *مكتبة الخانجي، القاهرة*، 1973، ص. 514
[19] Mauro, E., Sessa. E & Quartarone, C. L'Art Arabo-Normand: La culture islamique dans la Sicile médiévale, 2nd ed, Museum with no frontiers, Vienna, 2010, pp. 110-111
[20] Schubert, E., kahyaoglu. M. & Gomes, M. Discover Islamic Art in the Mediterrenean, Museum with no frontiers, Brussels, 2007, pp. 101-102
[21] de Beylié, L. La Kalaa des Beni Hammad, op. cit., fig. 16
[22] Id, fig. 16, pl. XXI
[23] R. Bourouiba, R. « La salle d'honneur du palais ouest du Manar », Bulletin d'Archéologie Algérienne, t. V, 1971-1974, p. 247, fig. 3 & 4
[24] Bourouiba, R. les H'ammadites, Enal, Alger, 1984, p. 217, fig. 44
[25] Golvin, L. Recherches archéologiques à la Qal'a des Banu Hammad, Maison neuve & Larose, Paris, 1965, p. 78 & 124
[26] Marçais, G. l'Architecture musulmane d'Occident, op. cit., pp. 196-197
[27] Golvin, L. Essai sur l'architecture musulmane: l'art hispano-mauresque, t. IV, Klincksieck, Paris, 1979, p.195.
[28] Cf. Klobe, T. The Islamic ceilings of the Cappella Pallatina in Palermo, Mazda publishers, Santa Ana, 2022
[29] Golvin, L. Recherches archéoloigiques à la Qal'a des Banu Hammad, op. cit., p. 145